التواصل الفرعي في منهجية الانثروبولوجست جريجوري باتيسون

د. حسين فاضل سلمان

كلية الآداب – جامعة بغداد

Abstract:

The concept of anthropologist Gregory Patson's sub-communication concept is a cross-reference to many anthropological and non-anthropological constructs through which a recombinant continuum is understood through which the group's form and social processes are understood, how the pattern is produced and reproduced again, and that the astronomy in which these concepts are based On the principle of conflict according to the biases of the spirit of the group and the spirit of personality, integration and symmetry, and the formation of splinter, which is the concept of anthropological pristine, which shows how the social interactions take their forms parallel and coherent The basic purpose of these blocks is to understand cognitive messages with the other. These theoretical manipulations have produced a comparative approach that relies on the repetitions of everyday, inward and outward behaviors (the other group), a measure of the validity of the social reference

الملخص:

شكل مفهوم التواصل الفرعي لدى الانثروبولوجست جريجوري باتيسون مرجعية استدماجية للعديد من المتبنيات النظرية الانثروبولوجية وغير الانثروبولوجية التي صنع منها متصلا استرجاعيا يفهم منه شكل الجماعة والعمليات الاجتماعية في داخلها، والكيفية التي تنتج النمط وتعيد انتاجه مرة اخرى، وأن الفلك الذي تدور فيه هذه المفاهيم قائم على مبدأ الصراع على وفق ثنائيات روح الجماعة وروح الشخصية، والتكامل والتناظر، والتكوين الانشقاقي الذي يُعدّ المفهوم الانثروبولوجي البكر الذي يوضح الكيفية التي من خلالها تأخذ التفاعلات الاجتماعية اشكالها بمتوازيات ومتقابلات الهدف الأساس منها هو فهم الرسائل الادراكية مع الآخر. وقد انتجت هذه التناولات النظرية منهجاً مقارناً يعتمد على التكرارات في السلوكيات المنمطة اليومية الموجهة إلى الداخل (الجماعة) والى الخارج (الجماعة الاخرى)، وهي مقياس لصدق المرجعية الاجتماعية.

الكملمات الدالة : التواصل الفرعي . المنهجية . جريجوري

المقدّمة:

من ابرز المشـــكلات التي واجهها الباحثون الأنثروبولوجيون في بداية التبلور لتأسـيس منهج الاشـتغال الميداني هي مسـألة التواصـل مع مجتمع البحث والانـدمـاج الثقـافي، اذ تعـد اللغـة هي الاداة الاســـاس التي حرص الأنثروبولوجيون على تعلّمها لغرض التواصـــل مع الآخر وصـــولاً الى فهم المعاني التي تنتجها المنظومة الثقافية للمجتمعات البدائية التي درســـها الأنثروبولوجيون على وفق أشـــكال اجتماعية متداخلة، ومن بين هذه الاشكال الاجتماعية الاكثر شهرة في الدراسات الانثروبولوجية: الطوطمية والشامانية والبوتلاش والكولا، فلكل شكل من هذه الاشكال جماعة تتبناها ومنظومة ثقافية تعبر عن آليات التواصـــل في داخلها، فالطوطمية تجســـد التواصـــل عن طريق الانتماء الرمزي لحيوان معين، وعدّ روح الحيوان هي الحارســة للعشــيرة والفرد، وان التواصــل الفرعي يُحدث التبادل بالمنفعة بين الانتساب الدنيوي اي حدود العشيرة وهوية طوطمها، والجانب الغيبي الذي ينسـب اليه كل الخير أو الكوارث والشـرور، بينما يأتي التواصـل الفرعي بين الواهب والموهوب ليشكل الشكل الاجتماعي الاكثر انتشاراً في الدراسات الانثروبولوجية وهو البوتلاش والكولا، وهي عبارة عن ممارســـات ســـلوكية يتواصـل من خلالها الناس عبر طقوس اجتماعية تأخذ صـفة دائرية للربط ما بين جماعات متباينة مكانياً يُحدث التواصـــل من خلالها اعادة تنظيم المراكز الاجتماعية وبناء السلطة والضبط والتنظيم والزعامة الدينية والوفاء بالعهود. وتشكل مجمل التناولات السابقة المنظور التبادلي في الدراسات الانثروبولوجية التي اهتمت بفهم عملية التبادل الاجتماعي الثقافي للمجتمعات البســيطة، واخذ هذا المفهوم بعدا اخر في دراســة الجماعات الاثنية والفرعية في المدينة تحت مسـمى التواصـل الثقافي والاجتماعي للعملية الاجتماعية وفق اشـكال وبناءات تبرز انماط فعل متباينة بتباين المرجعية الثقافية، وتقدم هذه الفكرة للتوجهات البحثية للانثروبولوجســت جريجوري باتيســون الذي شــكل من مفهوم التواصـــل مرجعية نظرية اســـتدمج فيها العديد من النظريات الانثروبولوجية ومن مدارس متنوعة ليشـــكل بها منهجية تكاملية تبتغي فهم تكون النمط واستمرارية الحدث.

المبحث الاول: الموضوع والاهمية والمفهومات:

اولا: الموضوع، الأهمية، الأهداف:

أن الدراسات الانثروبولوجية اهتمت بفهم التواصل الفرعي في سياق تبادلي على صعيد الاشكال الاجتماعية سواء أكانت قرابية، أم لغوية، اقتصادية عند كلود – ليفي ستروس او بفرض العطاء والاخذ والرد لدى مارسيل موس، وهذه التأسيسات النظرية قد بلورت مرجعية نظرية لدراسة التواصل، وهي ما أطلق عليه بالنظرية التبادلية في الدراسات الانثروبولوجية، أو ما عرف على وفق منظور مارسيل موس بالوقائع الشمولية التي من خلالها يتواصل افراد المجتمعات سواء أكانوا جماعة صغيرة ام جماعات متفرقة. ونقصد بالوقائع الشمولية هي دراسة اي ظاهرة او نمط ثقافي او قرابي لا يمكن دراسته بمعزل عن البناء الاجتماعي، بل يدرس بصورة شمولية كون الحياة في المجتمعات البسيطة التي درسها الأنثروبولوجيون متداخلة ومتواشجة اجتماعياً وثقافياً.

ان موضوع بحثنا يناقش ما تم تطويره من توجهات نظرية ودراسات ميدانية تخص مسألة التواصل والانعكاسات التي حدثت عندما انتقلت هذه المنهجيات إلى دراسة المدينة، اذ اختلفت المتبنيات المنهجية باختلاف المكان، ومن بين أهم هذه التوجهات يأتي جريجوري باتيسون الذي ركز على الكثير من الموضوعات التي توزعت ما بين نظرية التعلم والسينما والتنشئة الاجتماعية وايكولوجيا العقل، إلا أن الإسهام الأساس في دراسته الميدانية تركز على دراسة الجماعات الاثنية وحدود التواصل الاجتماعي والصراع الثقافي بواسطة المنهج المقارن، وعلى الرغم من ان باتيسون قد تتلمذ على يد كبار منظري المدرسة الانجليزية الاجتماعية (البنائية الوظيفية) مثل رادكلف بروان وبرانسلاف مالينوفسكي الا انه طور وجهة نظر هذه المدرسة وتجاوزها من خلال منهجية تكاملية تبلورت ميدانياً في دراسته المعروفة لمجتمع الـ(Naven)، اذ تعد هذه الدراسة انطلاقة باتيسون لرسم مزاوجات عديدة مع علم النفس والفلسفة وتوجهات المدرسة الاميركية في الثقافة، وكذلك اعادة بلورة منهجية البحث في الدراسات الانثروبولوجية بالرجوع الى نظرية السبرنطيقيا.

إن مجمل التناولات النظرية والمنهجية وميدان اشتغال باتيسون تركز على دراسة التواصل الفرعي للجماعات الأثنية على وفق مفهوم التكوين الانشقاقي Schismegenese وهو المفهوم الاساس والمحوري في نظرية باتيسون ومنهجه في دراساته للتواصل الفرعي للجماعات الأثنية أو البسيطة الذي طوره ونقله إلى مديات المجتمعات الحضرية والمعقدة، اذ يتفرع من هذا المفهوم العديد من الثنائيات المفاهيمية التي شكلت نظرية ومنهج باتيسون ومنها: التناظر والتكامل، السيطرة والخضوع، وهي مفاهيم سعى من خلالها لرصد (البنية الكمية) في التفاعلات الاجتماعية.

ويعتمد بحثنا على مجموعة من التساؤلات التي من خلالها نسعى الى اعادة بناء التوجه النظري والمنهج المتبع لدى باتيسون، علما ان هذا التوجه غير واضح بصورة اشتغالية، ولم تحدد آليات اشتغال منهجه، ولهذا الغرض نورد التساؤلات الآتية:

1. كيف تجاوز باتيسون توجهات البنائية الوظيفية ذات الصناديق النسقية المغلقة؟
2. بماذا يختلف منهج باتيسون المقارن عن التوجهات المرجعية السابقة للمنهج المقارن؟
3. ماهية التواصل الفرعية لدى باتيسون، وكيف شكل نظرية ومنهجاً لدراسة الجماعات الاثنية؟

ان مجمل ما تم طرحه من تساؤلات منهجية تشكل الاجابة عنها هدفاً للبحث الحالي، وتتجلى اهمية ما يهدف اليه البحث من خلال محاولة رسم حدود التوجه النظري لباتيسون وتوزيع المفاهيم النظرية التي قدمها على شكل ترسيمة لمنظومة تحليلية انثروبولوجية، أما على صعيد المنهج الجريجوري في الانثروبولوجيا فان التناول اعقد، وتكمن الاهمية بتحديد خطوات المنهج واليات اشتغاله في الميدان. كما تتجلى اهمية دراسة منهجية باتيسون ونظريته في التواصل الفرعي بكونها خالفت المدرسة البريطانية الكلاسيكية وازاحت الحواجز بين العديد من المناهج، وقد عمد باتيسون الى نقل التأسيس الاثنوجرافي عند دراسته لمجتمع (Naven) الى تجريدات نظرية ذات طبيعة تكاملية درس عبرها الثقافات المعقدة مقارنا بين الثقافة الاميركية والثقافة البريطانية على وفق منظور الصراع والهيمنة والخضوع.

ثانياً: جريجوري باتيسون ومدرسة بالو التو "التواصل الاوركسترالي":

ولد جريجوري باتيسون في 9 مايو 1904، وهو ابن ويليام وبياتريس (درهام) باتيسون. وكان لابيه شهرة واسعة في علم الوراثة، وكانت عشيرة باتيسون كلها بصفة عامة ممثلة دائما بشكل جيد في اوساط المثقفين (سيلز، 2010، ص63).

ويعد باتيسون من باحثي الولايات المتحدة الاميركية والذي افاد من دراسات البيولوجيا وعلم النفس في دراسة الانثروبولوجيا المميزة والمبتكرة، كما طور العلاقة بين علم الاتصال والانثروبولوجيا، اذ قدم لدراسات الانثروبولوجيا مفاهيم عديدة نقلاً عن نظرية السبرنطيقيا، وقد مهدت دراسته الاثنوجرافية بعنوان (Naven 1936-1958) الطريق لمجالات كثيرة اصبحت فيما بعد مصدرا للدراسات الرمزية في الانثروبولوجيا (سيمور، 2009، ص174). اذ تشكل دراسة "نافين" المنطلق الانثروبولوجي الاساس، حيث التقى بمرغريت ميد وأجرى معها ابحاثاً عن الرمزية الشعائرية، في هذا العمل جمع باتيسون بين تحليل طقوس التنكر وتفكير نقدي حول طبيعة تفسير الاحداث الاجتماعية الثقافية، تخطى باتيسون المنهج الوظيفي مما جعله يغني التفسير الاجتماعي للطقوس بدراسة مظاهرها المنطقية والوجدانية بالإشارة الى ما سماه "مجموعة التصورات" و"سلم القيم Eidos Atethis" في ثقافة شعب ياتمول (بونت وايزار، 2006، ص273) .

ان بداية دراسته الاثنوجرافية لطقس النافين الذي يمارسه الاياتمول غرس باتيسون اتجاهاً منهجياً مقارناً يركز على فهم الشاذ والغريب عن طريق تحليل الشكل في علاقته بالفعل (برنارد، 2017، ص264)، ان عملاً مثل "نافين" الذي عبر باتيسون من خلاله عن عرفانه لمالينوفسكي ورادكلف

بارون وتجاوزه لمنهجيتهم في الوقت نفسه في منهجه الذي كان يعدّ فريداً في زمانه، كان باتيسون يعبر في نافين عن حالة انغماس ذاتي خصوصاً اذا لم يتم تقييم هذه الحالة بالمعايير المتوقعة لاثنوجرافيا تلك الايام، بدلاً من انتاج اثنوجرافيا صرحية ترتكز على البناء الاجتماعي قام باتيسون بتوجيه اهتمامه في البحث العلمي خاصة الى العلاقة بين الاخت والخال، وما يتبع هذه العلاقة من طقوس وشعائر خاصة، كانت اثنوجرافية باتيسون في هذا المجال محفزة، ولكنها مثيرة ايضاً، ففي الوقت الذي كان هو يوحي بوجود نموذج لبناء اجتماعي فريد، الا ان ذلك كان عسيراً على الفهم، خاصة ذلك الجزء الذي يخص زواج الاجداد بحفيداتهم من البنات، كان من المتوقع ان يقوم باتيسون بشرح وتبرير كامل لوجود ذلك البناء بين سكان "السيبيك"، ولكن من المؤسف انه لم يقدم أي ايضاح كاف للاطار الاجتماعي العام (يتيم، 2004، ص168-169).

والملاحظ على توجهات باتيسون الانثروبولوجية انه درس ميداناً انثروبولوجياً خالصاً باتجاهات نظرية متصارعة ومتباعدة آنذاك، اذ تبقى مسألة استخراج الاتجاه النظري ومنهج البحث عند باتيسون هي مطلب يتقسم بين سؤال البحث واهميته واهدافه، والذي ركزنا فيه على مسألة التواصل الفرعي.

وبعد مهمته في بالي 1936-1938 مع مرغريت ميد، حيث اختبر التصوير والسينما كوسائل لتحليل السلوك، تمت تسمية باتيسون في مستشفى المحاربين القدامى في بالو التو – كاليفورنيا، حيث تفرغ لمراقبة عائلات المصابين بالفصام، وقد اتاحت مقاربته المستوحاة من الانثروبولوجيا كما من علم التحكم الحركي ان يرى في المرض العقلي نتيجة خلل وظيفي لنظام التواصل العائلي، في هذا المنظور لا ينحصر المرض في المجال الشخصي، انما يصبح ميزة للتفاعل العائلي في مجمله، وهو يظهر بشكل خاص كنتيجة لرباط مزدوج (Double Bind) معرف كتناقض لا يمكن تخطيه بين خطاب معين وبين الاطار الذي يحدد قواعد تفسيره (بونت وايزار، 2006، ص273).

وفي السياق ذاته، هناك ترجمات اخرى لمفهوم الرباط المزدوج لدى باتيسون مثل مفهوم الاكراه المزدوج او الايعاز المفارقي الذي يدل على وضعية يكون فيها نظام العلاقات قائماً على ارغام مزدوج في التنشئة الاجتماعية لا يطاق، وكما تم الاشارة اليه سابقا كان الغرض من صياغة هذا المفهوم في البداية يقتصر على دراسة مرضى انفصام الشخصية "الشيزوفرينيا"، ثم امتد الى دراسة الممارسات البشرية بصورة عامة لاسيما في دراسات التواصل الاجتماعي (ميغري، 2018، ص187). ان التنوع البارز في موضوعات مدرسة بالو التو يؤكد التوجه نحو مسألة ازالة الحواجز بين العلوم الاجتماعية، وتبني منهجية التداخل التكاملي الذي يسمح للباحث في الميدان الانتقال والتحول في السياقات النظرية والمنهجية لمختلف العلوم على اساس الحقائق المتغيرة في الميدان، ومن اهم الحقائق التي اسندت وتبلورت عن هذه المنهجية هو انتقال الدراسات الانثروبولوجية والسوسيولوجية من دراسة ميدان محدد او شمولي والبحث عن بؤرة الاهتمام الثقافي والاجتماعي فيه الى دراسة موضوعة معينة داخل مجتمع معين تخضع لمنهجية تحليلية وتتبنى طابعاً تكاملياً.

وهذا ما اكدت عليه مدرسة بالو التو في اقتراحها نظرية جديدة للتواصل تتجلى في تجاوز النموذج التواصلي الخطي المحض الذي يمثله كلود شانون، ثم بعده رومان جاكوبسن واستبداله بالنموذج النسقي، على عدّ ان التواصل من منظور مدرسة بالو التو اساس اي خلل قائم داخل النسق العائلي الاجتماعي، وتعدّ هذه المدرسة التواصل ظاهرة اجتماعية، اذ يتم التركيز على العلاقة التي تربط صيرورة دائرية بحيث تحدث كل رسالة تغذية راجعة Feedback، ومن منظور مدرسة بالو التو لا يختزل التواصل في الرسالة اللفظية فحسب، على عدّ ان لكل سلوك اجتماعي قيمة تواصلية، ففي حالة التفاعل لا يمكن الا ان نتواصل، اذ ان الايماءات او الحركات او المواقف بل ايضاً القمع او الامتعاض، وكل رسالة في التصور النسقي لنظرية التواصل بحسب رواد هذه المدرسة تقتضي مستويين من الدلالة، فهي لا تنقل المحتوى الاخباري فحسب بل تعبر ايضاً عن شيء ما حول العلاقة التي تربط المتخاطبين (وينكن، 2018، ص61-62).

ان فكرة الاتصال بما هي فعل لفظي منعزل، واع وارادي، وتقوم عليها السوسيولوجيا الوظيفية، قد نقضتها فكرة الاتصال بما هو سيرورة اجتماعية تسمح بإدماج عدة طرائق في السلوك (الأداء): الكلمة، الحركة، النبرة، المسافة الفاصلة بين الافراد، وبهذا فان الاهتمامات البحثية لهذه المدرسة قد اعطت اولوية للحركة، واستعمال الحيز المكاني في العلاقات بين الافراد كما بينت ان السلوكيات الفردية غير السوية هي انعكاس للبيئة الاجتماعية، اي ان تحليل السياق ضمن هذه الرؤية يصبح اكثر اهمية من تحليل المضمون، ذلك ان التواصل يتم تصوره كسيرورة متحركة ذات مستويات عديدة، اذ يجب على الباحث الذي يسعى لالتقاط لحظات تدفق المعاني ان يصف انتظام مختلف طرائق السلوك ضمن سياق ما (ارمان وماتلار، 2005، ص80-81). اذ اكدت مدرسة بالو التو لما سبق ذكره ان استعمال استعارة الاوركسترا التي يدخل فيها كل فرد باستمرار ويتحرك فيها كل بعد من الابعاد الانسانية هي المنبع التشاركي لفهم عملية التواصل (ميغري، 2018، ص189).

ثالثاً: ممكنات الاشتغال النظري (المنظومة المفاهيمية):

يستند بناء المنظومة المفاهيمية للبحث على المعادلة الثنائية التي وضعها اورنالد جرين وميرتون جوردون، وتتعلق بمفهوم الثقافة الفرعية واصطلاح المجتمع الفرعي، وهما ينظران الى معالجة الظواهر الثقافية على انها تمثل عنصراً انقساماً مع المجتمع الكلي، بينما نجد عالمين اخرين هما وولتر ميلر والبرت كوهين يحددان الثقافة الفرعية من خلال موجهات القيم الاساسية لاعضاء المجتمع الفرعي فيما يتعلق بالمعايير وانماط السلوك، هذا الاتجاه التفاعلي يرى ضرورة الاشارة الى الثقافة الفرعية ومعالجتها من خلال مستويات الفهم الخاصة بانماط سلوك الجماعات، لاسيما ما يرتبط منها بالوظائف الكامنة او المستترة لسلوك الجماعة الفرعية (ابراهيم، 1985، ص126).

يُحدد التواصل الفرعي في سياق بحثنا والسياق الاجتماعي والثقافي لميدان الدرس الانثروبولوجي هو مفهوم الاختلاف بوصفه سياقاً، والذي نعني به بحسب وجهة نظر باتيسون الانقسامية والتماثل والتشكل والتمايز والتقاطب الثقافي بين روح الجماعة وروح الشخصية، وهما طرفي المعادلة المكونة من مفاهيم التناظر والتكامل والسيطرة والخضوع، اذ تقاس هذه الثنائيات على وفق فرضية باتيسون في الثقافة المشتركة والتشاركية، والتي هي عبارة عن بنية كمية للتفاعل ينتج من خلالها الاختلاف وتعيد انتاج العملية الاجتماعية بصورة متوالية ثقافية تبلور انماط ثقافية متناظرة ومتكاملة تعيد انتاج التطبع وروح الثقافة.

وقد عرف باتيسون السياق بأنه "ظاهرة لا اساس لها ولا يمكن تحديدها في المكان او الزمان، وربما ينبغي لنا ان نقول ان السياق هو مجموعة من الاختلافات.. بل صورة عقلية او خريطة ذهنية، وهو اعتراف بالاختلافات التي تحدث فرقا ضمن مجموعة من العلاقات" ((bale, 1992, p.16).

ان جميع المفاهيم السابقة ترتبط بالثقافة بوصفها كياناً مشتركاً او قابلاً للمشاركة من التكوينات المادية والعقلية والاجتماعية التي يخلقها الافراد الذين يعيشون في مجتمع ما... ويرى سوروكن ان الثقافة التواصلية تتكون من ثلاث مستويات: المستوى الايديولوجي اي (المعاني، والقيم، والمعايير)، والمستوى السلوكي اي (تلك الافعال التي تجعل من الجانب الايديولوجي للثقافة شيئاً اجتماعياً موضوعاً وموضوعياً، والمستوى المادي وهو يمثل الوسائل الاخرى لاظهار الجانب الايديولوجي للثقافة وجعله شيئاً اجتماعياً (هولتكراس، 1999، ص145). ومن ثمّ، يقابل هذه المستويات الثقافية مستويات للتواصل وعلى النحو الآتي:

1. مستوى تشكل العلاقات والارتباطات التي يتم نسجها من طرف الافراد والجماعات التي تعبر عنها الروابط والمعاشرة التي يحياها الفرد نفسياً واجتماعياً، وكذلك الانتماء العضوي والوظيفي مجتمعيا ومؤسساتياً وتنظيمياً.
2. مستوى اللغة واشكال التبادل الرمزي من جهة التعبير والكلام والتخاطب.
3. مستوى ارسال او نقل المعلومات والعمل على تصريفها آلياً واجتماعياً وانسانياً (مفتاح وبوحسن، 2001، ص47).

نلاحظ على الطرح الخاص بمستويات الثقافة والتواصل انه ذو طبيعة تصنيفية تمثل محتوى آليات اشتغال الثقافة على وفق سياقات تتوزع ما بين المنظومة الثقافية والجانب السلوكي الذي ينتظم وينضبط من خلال مجموعة من الوسائل والقوانين التي تعمل في الوجود الاجتماعي المتجسد في زمن ومكان معلوم.

ان سعي الباحثين في مجال التواصل الاجتماعي الثقافي للانثروبولوجيا الادراكية هو تعريف الثقافة بوصفها مجمل التصورات التي يجب ان يملكها الفرد للتفكير والتصرف كعضو في جماعة، لذا يجب دراسة العمليات العقلية الكامنة وراء هذه المعرفة ووراء تحصيلها، ان هذا المشروع يستبعد – كما فعلت الانثروبولوجيا احيانا – قابلية التحول الثقافية لاسيما اختلاف الاسلوب بين المجتمعات (بونت وايزار، 2006، ص40)، من ثم الاختلاف بين الثقافة الشمولية والثقافة الفرعية، والمجتمع والجماعة الفرعية، لاختلاف نمط التفكير او الذهنية، وقد سعى باتيسون الى ربط مسألة الجماعات بمنهجية الاختلاف على مستوى الادراك النسقي، وصولا الى التقابل الجماعي.

فالثقافة الفرعية هي نمط من المعيشة يختلف عن الثقافة الكلية، او بمعنى آخر هي نمط من السلوك تتميز به الجماعات الخاصة التي تعيش داخل المجتمع الاكبر، وقد يختلف سلوك افراد تلك الجماعات عن سلوك افراد المجتمع الكلي، ولكن في نفس الوقت تتضمن ثقافتهم عناصر تشترك فيها مع الثقافة الكلية، كما تحتفظ لنفسها بعناصر اخرى تميزها عن غيرها من الثقافات (ابراهيم، 1982، ص127)، وتعتقد روث بندكت ان الكل ليس مجرد مجموعة اجزاء، ولكنه نتاج ترتيب متميز والعلاقات المتبادلة بين الاجزاء التي خلقت كلا جديدا، وهذه النظرة التشكيلية التي يمكن ان يدعيها جميع النمطيين (هولتكراس، 1999، ص357). ان خلق الكل عن طريق التشكيل هو منظور يتوافق كليا مع نموذج باتيسون في منهجية الانشطار التكويني، اذ نجد في هذا الطرح ابعاداً مفاهيمية تجاوزت الترتيب الهرمي للثقافة والترتيب النسقي للجماعة من خلال فهم اساليب الحياة على اساس التمايز في المسافة المكانية والزمانية، ومجموعة الخيارات والاهداف التي تنطلق من مرجعية نفسية تجسد في ابعاد سلوكية للتواصل على وفق آلية نمطية.

ولا يقصد بالهرمية هنا القوة او الامر او السلطة، بل تعني نظاما ناجما عن اخذ القيمة موضع الاعتبار، فالعلاقة الهرمية الاولية او التقابل الهرمي هي تلك العلاقة التي توجد بين الكل وعنصر ضمن ذلك الكل، او علاقة بين جزئين بالاشارة المرجعية الى الكل، ويمكن تحليل هذه العلاقة ضمن جانبين متقابلين ينتميان الى مستويات مختلفة، فالهرمية تتضمن التميز داخل هوية معينة (الاسود، 2002، ص100-101).

من جانب آخر يعرف علماء الانثروبولوجيا الجماعة الفرعية بوصفها السياقات التي يشارك فيها الفرد، وتكون مركزا مستقلا للحياة والمصالح والسلوك البشري، وتتميز الجماعة الفرعية بوجود شعور فرعي مشترك وتمركز حول السلالة، وكذلك الامن الداخلي والقانون والنظام والجهد التعاوني (هولتكراس، 1999، ص172). ان اغلب التوجهات النظرية في الدراسات الانثروبولوجية جاءت تحت مسمى الجماعة العرقية او الجماعة السلالية، بينما يميزها فريدريك بارث بالنقاط الآتية:

1. تتحدد الجماعة العرقية بأنها ذات وضع سلالي خاص يميزها عن غيرها من الجماعات الاخرى.
2. تحدد الجماعة العرقية من خلال اشتراكها في محتوى ومضمون النماذج الثقافية التي تحدد وحدة الجماعة من خلال نظرتها الإدراكية لهذا المحتوى الثقافي المتميز.
3. ان يكون لتلك الجماعة العرقية بناء خاص من وسائل الاتصال والتفاعل الداخلي بين الاعضاء (ابراهيم، 1985، ص130).

ان تناول بارث لمفهوم الجماعة الفرعية (العرقية) تركز على مسألة رسم الحدود السياقية، السلالية، الثقافية، والتفاعلية للجماعة، بينما نجد ان باتيسون تجاوز مسألة الحدود الداخلية والخارجية للجماعة، وركز على مفهوم (التكوين الانشقاقي) اي التمايز التدريجي، اذ جاء تناول باتيسون للمفهوم بوصفه آلية لفهم واستيعاب سلوك الجماعات العرقية من خلال عملية التواصل الذي يحدد النمط الثقافي بالاضافة الى مرجعيات الجماعات (لبيب، 1999، ص15-16). وفي مقابل مفهوم الثقافة الفرعية والجماعة الفرعية بوصفها آلية منهجية لفهم التواصل، عرض باتيسون مفهومين هما روح الجماعة Ethos وروح الشخصية Eidos، وثمة تمييز كامن بين المفهومين اللذين تتألف منها الثقافة معاً، وتشير كلمة Eidos حسب استعمال باتيسون الى ما نطلق عليه عموم الشكل او البناء، وتعد مجموعات التقابلات الثنائية التي يصفها في دراسته للشخصية القومية نزعة المشاهدة في مقابل النزعة الاظهارية والهيمنة مقابل الخضوع جزءاً من الـEidos، وتشير كلمة الـEthos الى العادات والتقاليد وكذلك المشاعر والعواطف الجمعية المميزة لثقافة او حدث معين قد تم تعريفه وفقا للمعايير الثقافية، وتشير الكلمة بصورة اكثر تحديدا الى الطابع او الروح المميزة، وتبدو هذه المفاهيم مترابطة وعلى الاقل في دراسته للشخصية القومية تعتمد روح الثقافة الـEthos في تعريفها عبر الثقافي على العلاقة بين Eidos ثقافة معينة وEidos ثقافة اخرى (برنارد، 2017، ص267).

ان مفهوم روح الشخصية Eidos في نظر باتيسون تعني التقنين الثقافي للجوانب الادراكية لشخصية الافراد، ويقابل باتيسون بين المفهوم ومفهوم روح المجتمع، ويعرف هذا المفهوم الاخير قائلا انه: نسق الاتجاهات العاطفية الذي يحكم نوع القيمة التي يضفيها المجتمع المحلي على الصور المختلفة للإشباع وعدم الاشباع التي يمكن ان تعرض في مجرى سياق الحياة، ومن الواضح ان هذا يعني تقسيما لنسق القيمة الى وجهة عاطفية واخرى فكرية (هولتكراس، 1999، ص221).

ولغرض تحقيق فهم ارجاعي لعملية التواصل الفرعي، وضع باتيسون مفهوم البنية الكمية كمرجعية تصنيفية تحليلية ترصد التكرار السلوكي من جهة، وعملية التناظر والتكامل والسيطرة والخضوع للتفاعل الاجتماعي للحياة اليومية من جهة اخرى، على وفق الاختلاف الذي يولّد الاختلاف بين روح الجماعة وروح الجماعة الأخرى، في الاجمال اعتمد باتيسون على المفاهيم السابقة لفهم التواصل بواسطة القاعدة النظرية التي تعتمد على فرضية ان الاتصال بين المجموعات الاثنية يؤدي الى التكوين الانشقاقي، ولرصد هذه الفرضية يتوجب علينا تعريف **البنية الكمية بوصفها التكرار السلوكي للادراكات المتجسدة في مجموعة معينة، اذ يقصد من اصطلاح الكم هو مسألة عدد المرات التي يتكرر فيها سلوك معين في سياق اجتماعي تحول الى موضوع اجتماعي منمط في جماعة معينة له قيمة ومعايير تنظمه وتضبطه.**

وفي السياق ذاته، تكون البنية هي ما يعكس التحليل الداخلي للكلية، اي وجود عنصرين اساسيين في الاقل، ووجود علاقات ثابتة بين هذه العناصر وانتظام تلك العلاقات ضمن تشكيلات تفرض هذه السمة التناظرية قاعدة منهجية مزدوجة لعملية التكامل لا يمكن النظر لاي عنصر ينتمي لمجموعة مبنية (كلية) بمعزل عن العناصر الاخرى، ولا يمكن اعتبار ان مجموعة مبنية تقتصر على مجمل عناصرها وحسب (بونت وايزار، 2006، ص303). أو كما يذهب لالاند في تعريف البنية بكونها: "كل مكون من ظواهر متماسكة، أو متضامنة بحيث يكون كل عنصر فيها متعلقا بالعناصر الأخرى، ولا يستطيع أن يكون ذا دلالة إلا في نطاق هذا الكل" (مهيبل، 1993، ص16). ان من الضروري ان نلاحظ الترابط بين مصطلحي التواصل (Communication) والجماعة (Community) او في اللغة العربية التواصل والصلة، والدور الذي يؤديه الاول في تشكيل الثانية، اذ تكمن النقطة الجوهرية هنا في ان نعرف ان الجماعة ليست كيانا يوجد ثم يحصل له ان يتواصل، بل ان الجماعات تفهم فهما افضل بوصفها تكونت من خلال نماذجها المتغيرة في الاتصال (بينت وآخرون، 2010، ص52). هذا التكون جرى فهمه والتأسيس له من خلال دراسات مالينوفسكي وموس وليفي ستروس، اذ نلاحظ ان مالينوفسكي عرض مفهومه الضمني عن السياق التواصلي للجماعة، او ما يعرف بسياق الحال، او اثنوجرافية الحقائق التبادلية للفرد والجماعة (التفاعل الاجتماعي) وهي مكونة من اللغة والمكان والزمن الاثني المبني على ايديولوجية زمانية متشكلة، وان الفرضية التي يقوم عليها فهم السياق لدى مالينوفسكي هي ان التشكل الاجتماعي هو عبارة عن حاجات اساسية وحاجات ثانوية للفرد، وهي الدافع الاساس للتواصل الجماعي عند مالينوفسكي من خلال الجوانب العضوية للفرد والثقافة داخل الجماعة، اذ يحتكم التواصل لسياق متغير بتغير العملية الاجتماعية، وترتبط الاحتياجات الاساسية على وفق منظور مالينوفسكي بالجانب العضوي للانسان كالطعام والتناسل، بينما ترتبط الاحتياجات المشتقة بالتنظيم وبتمثلات النسق الاجتماعي، أما النوع الثالث من الاحتياجات فيرتبط بالامن النفسي والانسجام او التوافق الاجتماعي والتي يمكن اشباعه عن طريق انساق المعرفة (اسماعيل، 1987، ص123).

من جانب آخر، فقد قدم الانثروبولوجست الفرنسي مارسيل موس نظرية الوقائع الشمولية او ما يعرف بالعطاء التبادلي وهي قائمة على فرضية ان التواصل الانساني قام على مبدأ العطاء والاخذ والرد، اذ يتشكل المجتمع او الجماعة من خلالها، وتعيد انتاج نفسها على وفق متطلبات العملية الاجتماعية.

وفي سياق آخر، نجد ان توجهات ستروس قائمة على توجه نظري يهتم بدراسة الذهنية الادراكية للفرد والجماعة من خلال التبادل التواصلي، اذ تتكون نظريته من تبادل المنافع وتبادل اللغة وتبادل النساء، وقد اهتم بدراسة التواصل من خلال البنية التواصلية في متقابلات ومتضادات تشكل العملية الاجتماعية وتُعيد انتاجها (وينكن، 2018، ص78-93). وبالموازاة مع الطروحات الانثروبولوجية الكلاسيكية للتواصل، يقدم لنا الانثروبولوجست راي بيردوستل تعريفا للتواصل بابعاد منهجية حداثوية

الطرح تعبّر عن ارتباط الثقافة بالبنية وارتباط التواصل بالعلمية الاجتماعية، ويمكن رسم فرضية بيردوستل بصورة مبسطة: تواصل/مسار= ثقافة /بنية، فالتواصل عنده يمثل جزءا من شبكة مفاهيمية حيث يكون السياق والتشفير والبنية (النمط) والسيرورة قابلة للمبادلة كليا، ويمكن استخراج ثلاثة مستويات تفكير بالاشتغال المنهجي حول التواصل:

1. الثقافة والتواصل كلمتان تمثلان وجهتي نظر او منهجين في تمثيل التعالق الانساني (Interconnectedness) المنظم المهيكل، في كلمة الثقافة يتم تأكيد البنية، اما في التواصل فيكون التأكيد على العملية، ويتوجب ان نفهم العملية على اساس بنية معينة.
2. التواصل عملية دائمة متعددة القنوات تستعمل كل الاساليب الحسية: الرؤية، السمع، الشم، اللمس.. الخ.
3. التواصل بوصفه الجانب الديناميكي من التعالق الاجتماعي والثقافي.

المبحث الثاني: التوجه النظري لباتيسون (الانثروبولوجيا الاجتماعية الثقافية):

مرجعيات التوجه النظري لباتيسون:

تجسد توجهات باتيسون النظرية المنهج التداخلي التكاملي في العلوم الاجتماعية الذي يقوم على اساس تصنيف المعطيات على وفق آليات اشتغال ميداني متنوعة، اذ يعمل النمط المعرفي التداخلي التكاملي على هيئة مرجعيات نظرية ومفاهيم كنموذج ارشادي للتحليل، والهدف الاساس من هذا المنهج هو عدم تحجيم المعرفة بمرجعياتها الايديولوجية وازالة الحواجز المصطنعة بين التخصصات والمدارس المتنوعة بتنوع الاشتغال الميداني.

من اهم المرجعيات المعرفية التي كون من خلالها باتيسون نموذجه النظري هي التوجه الوظيفي البنائي بنسخته الكلاسيكية السوسيولوجية والانثربولوجية، وشكل التوجه الثاني مفهوم النمط والبنية على وفق منظورات الانثروبولوجيا الثقافية (النفسية) او الثقافة والشخصية، ولغرض ازالة الحواجز المدرسية بين المرجعيات السابقة لبناء نموذجه النظري لدراسة التواصل الفرعي تبنى باتيسون اتجاها ثالثا ركز فيه على المقاربة بين الانثروبولوجيا والفلسفة، ونظرية السبرنطيقيا وتطبيقاتها الاجتماعية الثقافية.

ان لكل مرجعية تبناها باتيسون فرضية ومفهوم وآليات اشتغال، اذ سعى الى دمجها بنموذج ارشادي للتحليل، وهنا تكمن مشكلة بحثنا، وذلك لأن باتيسون لم يخرج بمخطط او نظرية واضحة، وانما عمد الى الاشتغال المفاهيمي على شكل متقابلات، والنقطة الثانية من مشكلة البحث تكمن في عدم وضوح اليات اشتغال المنهج المقارن لدى باتيسون في دراساته التحليلية (يتيم، 2004، ص 168 وما بعدها)، وقد تحوّلت هذه المشكلة الى اشكالية في البحث الحالي.

1. الوظيفية – البنائية:

تتلمذ باتيسون في الاجواء المعرفية للمدرسة الانجليزية على يد كل من براون صاحب المنظور الاجتماعي النسقي للوظيفية البنائية، ومالينوفسكي صاحب المنظور الثقافي النسقي في الوظيفية البنائية، وبحسب الارث المكتوب حول توجهاتهم الانثربولوجية تم تصنيف براون بقوة ضمن الواضحين في عرض النظرية وجعلها نموذجاً للتحليل، اما مالينوفسكي فبقوة المنهج وقدرته على تحويل البعد النظري الى آليات اشتغال ميدانية، اذ نجد ان باتيسون زاوج بين هذه الطروحات ولم يكتف بهما، وانما رجع الى تراث المدرسة السوسيولوجية عن طريق دوركايم لكي يبلور بعض المفاهيم الخاصة بدراسة المجتمع، وفي السياق ذاته، رجع الى المنظور الثقافي عند مالينوفسكي الى جذوره المتجسدة في المدرسية الاميركية الثقافية لترصين توجهاته الميدانية وتطوير منهج المقارنة، وفهم عملية التثاقف.

وتأسيساً على ما سبق فإننا سوف نوجز استعارات باتيسون المفاهيمية لمنهجه التكاملي بنقاط محددة:

أ. استعار باتيسون بعض المفاهيم التطورية من توجهات السوسيولوجي هربرت سبنسر، اذ عرف سبنسر التطور بانه تكامل المادة وتشتت مصاحب للحركة، حيث تتحول المادة من تجانس غير محدد/ مفكك الى لا تجانس مترابط ومحدد، وتمر الحركة الباقية بتحول مواز من خلاله، ان المحور الاساس في نسق سبنسر هو الحركة وهي ليست قوة عمياء بل هي تخضع لقواعد محددة، ان ما يترتب على القاعدة المذكورة هو التحول من البسيط الى المعقد، ومن المتجانس الى المختلف، بصورة اخرى نتناول نظرية سبنسر بثلاثة مفاهيم هي: (عدم استقرار التجانس، العزل، التوازن)، والرابط الاساس بين المفاهيم السابقة هو سياق العزل المجتمعي، اي عندما يحدث التباين داخل تجمع معين يتطور نوع من التخصص في الاجزاء بالضرورة، وهنا ثمة قاعدة، فالوحدات المتشابهة تستجيب للمؤثرات على نحو متماثل، والوحدات غير المتشابهة تستجيب للمؤثرات على نحو مختلف (حمزة، 2015، ص75-76)، سعى باتيسون الى تفسير المنظور السابق على وفق قاعدة السياق الانثروبولوجي واسماها (سياق الاختلاف الذي يولد الاختلاف)، وسنوضح هذه القاعدة في مرحلة لاحقة من محاولتنا لبناء نظرية باتيسون في التواصل الفرعي الاثني، ونوجز هنا ان الاختلاف عند باتيسون هو مفهوم سياقي على شكل متصل بين التجانس واللا تجانس يحتوي على نقاط تكيفية نجملها بمفهوم التوازن.

ب. تتمثل الاستعارة الثانية وتتمحور حول مفهوم التكامل (Integration) وهو المبدأ الذي بمقتضاه ترتبط الاجزاء مكونة كلا واحدا، وهو يعني في الاثنولوجيا العلاقات الوظيفية بين العناصر والانساق الثقافية، وكذلك بين الثقافة وعوامل اخرى الطبيعة، اذ يفرق سوروكن بين التكامل المنطقي الهادف الذي يميز الثقافة، والتكامل العلي الوظيفي الذي يميز الانساق الاجتماعية... ولقد كان سمنر Sumner من اوائل من اهتموا بدراسة التكامل الاجتماعي، اذ يرى ان التكامل يعني التعادل الذي يخلق التوازن الاجتماعي الثقافي الذي يؤدي التغيير فيه الى احداث عملية تكامل جديدة، الا ان التكامل لا يكتمل على الاطلاق وهو ما ادركه سمنر (هولتكراس، 1999، ص127).

ومن وجهة نظر المدرسة الاميركية حاول كوهين Cohen ان يحل مشكلة التكامل غير التام وذلك عن طريق التمييز بين التكامل الوظيفي او تنظيم أوجه النشاط الضرورية من ناحية (التكامل المنطقي) او الفروض الثابتة التي تعبر عن القيم والمعتقدات التي ينطلق منها السلوك من ناحية أخرى، وهو يرى ان من لزوميات التكامل الوظيفي ان لا يتيح التحقق الكامل للتكامل المنطقي او يتيح تحققه بدرجات متفاوتة وفي ظل ظروف مختلفة (هولتكراس، 1999، ص128).

1. الجشطالت والانثروبولوجيا النفسية (الثقافة والشخصية):

تشكلت المرجعية الثانية في التوجهات النظرية لدى باتيسون من خلال الاطر النظرية لمدرسة الثقافة والشخصية التي ارسى دعائمها كل من مرغريت ميد وروث بنيدكت وادوارد سابير، والتي اهتمت بدراسة تأثر الشخصية بالثقافة بالاستناد الى التنشئة الاجتماعية الخاصة بالمجتمعات التي درسوها، اذ اهتموا ببلورة مفهوم النمط الثقافي على وفق سياق نظرية الجشطالت النفسية الالمانية.

وقد ارتأوا ان امكانية فهم الادراك تتوقف على النظرة الى الشيء المدرك ليس بوصفه حشدا من العناصر المستقلة، ولكن لأنه نمط منظم، يعني ذلك ان الكل اكبر من مجموع اجزائه، وان للكل خواصه الجوهرية، ويعد المعنى من هذا المنظور الجشطالتي وظيفة الانماط المنظمة... وقد امتزجت النظرية التحليلية النفسية لتأويلات نظرية التشكيل لتخلق وتصوغ اتجاهات جديدة في دراسة الثقافة والشخصية تعرف باتجاهات الشخصية الاساسية والمنوالية، فقد استبدلت مفاهيم البناء الاساس للشخصية والشخصية المنوالية باتجاه التشكيل... وقد صاغ رالف لينتون وابراهام كاردنر النقطة البؤرية في هذا الاتجاه ومفهوم البناء الاساس للشخصية الذي يفترض في رأي لينتون وجود نمط من التكامل داخل الثقافة يستند على الخبرات المشتركة لافراد مجتمع معين وخصائص او سمات الشخصية التي يتوقع ان تفرزها تلك السمات، ويشير مفهوم البناء الاساس للشخصية الى مجموع السمات المشتركة لدى غالبية افراد جماعة معينة والذي يتشكل نتيجة للخبرات التكوينية التي تفرزها قواعد ونظم الطفولة وتنظيم الاسرة، اذ ادخلت كواردي بوا تعديلات على اتجاه البناء الاساس للشخصية وذلك بصوغها لمفهوم الشخصية المنوالية الذي لا يفترض ان بناء الشخصية يكون عاما ومشتركا لدى كل افراد المجتمع ولكن يفترض ان هذا البناء يكون اكثر تكرارا ومنوالية، لذلك عندما نتحدث عن الشخصية المنوالية فاننا نشير الى اكثر الانماط تكرارا... وتعرف الشخصية المنوالية بأنها المرادف للمجموع الكلي للسلوك الثقافي المكتسب، بما يعني ان انماط السلوك لدى جماعة معينة تتكامل في شخصيات افرادها (برنارد، 2017، ص182-193).

والجشطالت (Gestalt) جزء من مصطلحات علم النفس الفنية المستخدمة عالميا. والكلمة تعني اقرب ما يكون الصيغة أو الشكل أو النموذج أو الهيئة أو النمط أو البنية أو الكل المنظم، كذلك الكل المتسامي... والجشطالت كل مترابط الأجزاء باتساق أو انتظام، أو نظام فيه تكون الأجزاء المكونة له مترابطة ترابطاً دينامياً فيما بينها وفيما بينها وما بين الكل ذاته، أو قل هو كل متكامل كل جزء فيه له مكانه ودوره ووظيفته التي تتطلبها طبيعة الكل. والجشطالت هو النقيض للمجموع إذ إن المجموع ليس اكثر من حزمة من الأجزاء أو سلسلة من القطع أو الأجزاء التي قد تكون مشبوكة أو ملصقة بعضها ببعض بطريقة عشوائية (ناصف، 1983، ص203-204).

وقد استند باتيسون في بلورة توجهه النظري في دراسة التواصل الفرعي الى مدرسة الثقافة والشخصية ونظرية التشكل في بناء مفهوم النمط الثقافي من خلال صياغته للبنية الكمية التي اوضحناها سابقاً في هذا البحث وهي في المجمل تتمحور حول تكرار السلوكيات اليومية في موضوعة محددة وتحولها الى نمط متعارف عليه.

وقد عرفت روث بنيدكت التشكيل (النمط) بأنه الدافع المسيطر في الثقافة، وهو مبني حول سمات بشرية محددة ومختارة، ويسعى نحو طمس السمات الاخرى، وقد اشار كلاكهون بصورة مغايرة او موازية لتعريف بنيدكت لمفهوم النمط من خلال الاحالة للانساق الكلية المعلنة في الثقافة، فالنمط تعميم لما لا يفعله او ينبغي ان يفعله الناس، أما التشكيل في احد معانيه فهو تعميم يختص بمسألة (لماذا) يفعلون او ينبغي ان يفعلون اشياء معينة (هولتكراس، 1999، ص100-101).

إن القضية الأساسية في النظرية الجشطلتية هي قضية الاهتمام بالتناقض بين ما يسمى "الكليات التي تساوي تماماً المجموع الكلي للأجزاء المكونة لها"، وما يسمى "الكليات التي تتسامى فوق المجموع الكلي للأجزاء المكونة لها أو تتجاوزه"، فالنوع الأول من الكليات يشبه مجموعة من الطوب أو حفنة من حبات الأرز أو مبلغاً من المال. أما النوع الثاني فالكل فيه يختلف كل الاختلاف عن مجموع الأجزاء المختلفة المكونة لهذا الكل، ومن الأمثلة على ذلك المجال الكهربائي وفقاعة الصابون والمجال المغناطيسي والشخصية. وفي رأي أصحاب النظرية الجشطلتية لا يوجد سوى أشياء قليلة في الواقع يمكن أن ينطبق عليها وصف الكليات المساوية لمجموع أجزائها، في الوقت الذي نرى فيه أن الغالبية العظمى للوحدات الطبيعية ينطبق عليها وصف الكليات المتساوية فوق مجموع أجزائها، ولا يحق لنا أن ننظر إلى الكليات المتسامية كما لو كانت لا تختلف من حيث المبدأ عن المجاميع التركيبية التحكمية (ناصف، 1983، ص201-202).

2. نظرية الانماط عند برتراند راسل:

تأسيساً على ما سبق طرحه من تناول نظري يخص نشوء وتبلور مدرسة الثقافة والشخصية وتبنيها مرجعيات عديدة من اهمها مدرسة التشكل (الجشطالت)، فإننا لم نجد التناول النظري والمنهجي للانثروبولوجست باتيسون على وفق طروحات هذه المدرسة، وانما جاءت اغلب صياغاته لمفهوم التكرار والبنية على وفق متصل ثقافي يبرز لنا مفهوم النمط من خلال تناولات فلسفية ركز فيها على مرجعيات الفيلسوف البريطاني برتراند راسل في بناء المتقابلات المنهجية لدراسة الجماعة الاثنية.

وقد ركز راسل في نظرية الانماط المنطقية على ثلاث مراحل وهي:

أ. الافراد

ب. الصفات

ج. صفات الصفات

ويعد تقسيم راسل للأنماط كرتب تتعدد على وفق المتبنيات النظرية للنمط، وهي نظرية ذات طابع رياضي خالص. اذ تُعرف النسخة المعقدة من نظرية الأنماط التي وضعها راسل باسم "النظرية المتشعبة" للأنماط. فهم هذه النظرية فهمًا صحيحًا من الأمور الخلافية، ولكن الوصف التالي قد يقدّم تقريبًا أوليًا كان السبب الذي دفع راسل إلى ابتكار «التشعب» ويُقصد به التقسيم الداخلي للأنماط إلى رُتب هو أنه كان يعتقد أن العثور على حل لمشكلة التناقض الظاهري كان يتطلب ذلك بالتحديد. وكان تصوره أن مشكلة التناقض الظاهري تنشأ من محاولة تعريف الصفات باستخدام تعبيرات جبرية تحتوي على إشارةٍ إلى كل الصفات، لذلك كان لا بد من التحكم بشدةٍ في الحديث عن كل الصفات، ومن ثَمَّ، يجب تقسيم صفات النمط ١، مثلًا، تقسيمًا فرعيًا إلى رُتب: رتبة أولى من الصفات لا يرد في تعريفها التعبير الجبري «كل الصفات»، ورتبة ثانية من الصفات يرد في تعريفها التعبير الجبري "كل صفات الرتبة الأولى»، ورتبة ثالثة يرد في تعريفها التعبير الجبري كل صفات الرتبة الثانية» وهكذا. وما دام لا تَرِد إشارةٌ قط إلى كل الصفات ولا تنسبها إلى رتبة محددة، فلا تُعرَّف أي صفة بحيث يُشار إلى المجموعة الكلية التي تنتمي إليها. وتضمن هذه الطريقة تجنب التناقض الظاهري (جرايلنج، 2014، ص46). وقد قام راسل بقراءة المؤسسات الاجتماعية وفقا لنظرية الانماط بصورة توضح الثنائيات وتبرز لنا مرجعية باتيسون لراسل، ومحاولة قراءة الاخير للجماعات الاثنية على وفق التقابلات النمطية.

فقد دعا راسل الى تغيير المؤسسات الاجتماعية تحقيقا لاحترام الفرد وتنمية لدوافعه الخلاقة، ويقول راسل: ان الشيء المهم هو ضرورة تغيير مؤسساتنا تغييرا جوهريا بحيث تجسد احترام الفرد واحترام حقوقه، ويؤكد أن افضل واعظم تغيير نحتاج اليه هو تأسيس اخلاق المبادأة لا اخلاق الخضوع، اخلاق الامل لا اخلاق الخوف، ويضيف: ما نحتاج اليه هو الحياة الفردية لا الحياة الاجتماعية (شيحة والمسند، 1995، ص221).

أما الحجة التاريخية التي قدمها راسل للتدليل على صحة ما يذهب اليه فتعتمد على دراسته لحياة الانسان في جماعة منذ اقدم العصور حتى الوقت الحاضر، ففي المجتمعات البدائية كانت المسايرة والخضوع للجماعة من الشروط الضرورية لتحقيق الامن، وكان التشابه بين اعضاء الجماعة ضروريا لراحة الفرد واشباع حاجات الجماعة، وبالتالي كان التنظيم الاجتماعي قوة تستبعد الاختلافات الفردية وتؤكد الوعي الجمعي، ومع تقدم الحياة الاجتماعية زادت أهمية التنوع والاختلاف، وأصبحت المبادأة أو الحرية شرطا ضروريا للتقدم الاجتماعي (شيحة والمسند، 1995، ص222).

وقد وظف باتيسون مقاربة راسل للبعد التاريخي في رسم معالم جديدة للمنهج المقارن في الدراسات الانثروبولوجية عن طريق توظيف المعطيات الاثنوجرافية التي استحصل عليها من دراسته لمجتمع النافن (الطقس والشكل الاجتماعي) كما ذكرنا سابقا بإجراء مقارنة بين الثقافة الاميركية والثقافة البريطانية، وقد حاول رسم مقاربة بين النمطية في المجتمعات البدائية وتنشئتها الاجتماعية وبين النمطية الجماعية في المجتمعات الحديثة، وسنوضح طبيعة هذه النظرية والمنهج في ثنايا بحثنا هذا لاحقاً.

لقد شكلت هذه المرجعية لنظرية باتيسون في التواصل الفرعي مقاربة مهمة بين الثقافة بصورتها الشمولية وتعدد الانماط باختلاف اشكال العملية الاجتماعية، وأهم ما يميز ارتكان باتيسون على نظرية راسل التي حاول من خلالها وضع منطق فلسفي للمعادلات الرياضية هو تقسيم الثقافة كنمط وتقسيم النمط كسمات ثقافية واجراء مقابلة بين الانماط المتعددة على وفق قاعدة صفات الصفات اي سمات نمط معين تقابل السمات ذاتها وتقابل سمات النمط الآخر.

3. السبرنطقيا (بالي التو):

قد شكلت هذه المرجعية لباتيسون مزاوجة أخرى لغرض رسم متصل انثروبولوجي لدراسة التواصل الفرعي للجماعات الاثنية، والمقصود هنا هو نظرية السبرنطيقيا التي تجاوز بها المتصل الرياضي للتواصل او ما يعرف بـ"المرسل – الرسالة – المتلقي"، وهو ما تميزت به مدرسة بالي التو.

وتعرف السبرنطيقا بأنها العلم الذي يوجه البحث في قواعد التواصل والتطبيقات التقنية المرتبطة بها. كما ارتبطت السبرنطيقا أحيانا بتعريف الذكاء وقياسه وشرح وظائف المخ وصناعة آلة التفكير. وتتطابق السبرنطيقا مع مشروع للمعرفة، يتمحور حول المراقبة الفعالة والتطبيق الناجح مما جعلها ذات جانب تقني أساسا. يتحقق هذا التوجه من خلال التحكم في الطاقة المحركة للسلوك الفردي والجماعي حتى يتم توجيه شتى الجوانب العقلية والنفسية والعضوية، بهدف الحفاظ على التوازن في المجتمع، وبهذه الطريقة أصبحت عملية مراقبة السلوك من أبرز صفات السبرنطيقا، وذلك من خلال مطابقة السلوك الإنساني بالآلة. ويعتقد بأنه يمكن ضبطها والتحكم فيها ومراقبتها وتوجيهها. وبناء على التوظيف المنهجي الدقيق للعلوم الرياضية، فإن أبحاث "فينر" وترصداته قادته نحو التطلع نحو الأخذ بالنموذج الدائري في الاتصال، ونبذ طريقة الاتصال الخطي التقليدي. لقد كان التفكير السائد يقوم على الاعتقاد بوجود علاقة خطية بين الأشياء، بحيث يؤدي السبب إلى ظهور النتيجة، لكن حصيلة التفكير في العصور الحديثة أدت إلى تبلور نوع جديد من العلاقات، يتمثل في "السببية الدورية"، القائم على أساس نوع من "الارتداد السلبي" (مريني، 2015، ص38-39).

اذ نجد ان مرجعية باتيسون ومؤسسي مدرسة بالي التو قد استعاروا المفاهيم الاساسية في السبرنطيقا "الارتداد السلبي والسلبية الدورية" وزاوجوها في ثنائيات لدراسة النمط الثقافي في التواصل الاجتماعي مركزين فيها على الادراك الفردي والارتدادات التي يولدها الفعل الاجتماعي داخل العلمية الاجتماعية، وسوف نورد بالتفصيل تطوير باتيسون لهذه النظرية في توجهه النظري لدراسة التواصل لاحقاً.

وبالرجوع إلى التناول التفاعلي (L'approche interactionniste) بزعامة ميد تتضح لنا الصورة بشكل أفضل على وصف أن الذات هي نتيجة للتفاعل الاجتماعي. وفي هذا السياق يجب أن لا نغفل الدعم الذي

قدمه المنظور النسقي بزعامة باتسون (Bateson) من مدرسة بالو التو (Palo-Alto)، اذ أبرز مدى تأثير الاتصال مع الآخر على إدراك الذات، فمفهوم القيد المزدوج (Double binde) يشير مثلاً إلى الرسائل المتناقضة التي قد تُولد اضطرابا شاملا على مستوى الهوية (كركوش، 2014، ص275).

وعليه، نبرر أن السبرنطيقا عبارة عن جهد لفهم الاسس التقنية للاتصال البشري، بيد ان هذا الاتصال يتكون من ثقافة، وصمت، وايماءات، وترانيم الصوت، وقواعد التفاعل التي تعبر عن النزاع وتحتويه، وكما ذكرنا سابقا، لعبت الانثروبولوجيا دورا في تجاوز التصورات الخطية للاتصال بالتركيز التدريجي على الفاعل – المتصل – التفاعلية (ميغري، 2018، ص187).

وأن أول ترجمة او فهم للسبرنطيقا عند باتيسون تجسدت في مفهومه "القيد المزدوج" و"الاتصال المتناقض"، فالأمر: "كن عفوياً" يلغي مضمون الرسالة، اذ ان الطاعة معناها استثناء العقوبة، وعدم الطاعة معناها رفض الرسالة، وتنشأ هذه العلاقة الجادة والمتناقضة في الصداقة والحب والاسرة وعلاقات التبعية .. الخ، فالذي يستقبل الرسالة مجبر على التصرف والرد، ولكن علاقته النقدية او انطوائه على ذاته لا يستولي عليها. وقد وضح باتيسون القيد المزدوج من خلال العلاقة العدائية "الام وطفلها" ، اذ تبتعد الام عندما يقترب الطفل، ثم يحث على الاقتراب عودة الطفل وابتعاد آخر للام، وهنا يكون الطفل في ورطة، وفسر باتيسون سنة 1956 القيد المزدوج بالخدعة التي عوقب الطفل من خلالها، لكنه اعاد النظر في هذا التفسير سنة 1963 ليرى القيد المزدوج ليس من منظور الجلاد والضحية، بل بمفهوم الاشخاص المأخوذين بنسق دائم ومستمر لينتج تعريفات ورؤى عدائية ونزاعية للعلاقة، فلم يعد باتيسون يحلل القيد المزدوج داخل النسق الاسري وانما النسق الاسري داخل القيد المزدوج (سعدي، 2013، ص274).

المبحث الثالث: منهجية باتيسون في التواصل الفرعي:

لقد وردت فيما سبق العديد من المفاهيم التي شكلت توجه باتيسون المنهجي في دراسته للتواصل الفرعي، ومن ابرزها التكامل والتناظر، والسيطرة والخضوع، وروح الجماعة وروح الثقافة، والاستعراضية والمشاهدة، وهذه المفهومات في المجمل تشكل المنظومة المفاهيمية لمنهجية باتيسون التي لم تتضح معالم نموذجها النظري واليات اشتغالها المنهجي، ونسعى الى بيان واستخلاص النظرية والمنهج لدى باتيسون في نهاية هذا المبحث.

ترتكز منهجية باتيسون على مجموعتين من التقابلات او التعارضات الثنائية: السيطرة في مقابل الخضوع والنزعة الاظهارية او الاستعراضية في مقابل نزعة المشاهدة، اذ يقول باتيسون: ان ثنائية التعارض – السيطرة مقابل الخضوع ترتبط ارتباطا واضحا بالابوة (السيطرة) والطفولة (الخضوع)، بينما تكون ثنائية التعارض النزعة الاظهارية او الاستعراضية في مقابل نزعة المشاهدة متغايرة في الطريقة التي تطابق بها او تمثل السيطرة والخضوع (برنارد، 2017، ص265-266).

ان محتوى التقابلات في هذه الثنائيات هو محتوى يبرز التناول الثقافي في المنهج الانثروبولوجي ويدلل على تجاوز الثلاثيات الكلاسيكية لدى التأسيسات الرائدة في الانثروبولوجيا كثلاثية مارسيل موس وثلاثية كلود ليفي ستروس، هذا التدليل قد جرى تطويره بشكل اكثر ارتباطا بالعلوم الاخرى لدراسة التواصل وهو ما نجده واضحا في دراسات **انثروبولوجيا الفرجة** التي تركز على ثنائية المضامين بين سياق المنتج من قبل الممثلين على وفق زمان ومكان محدد وفي اطار مكتوب وموزع ومعد بين القصة والممثلين والاحداث، وبين المتصل الآخر الذي يمثله المشاهدون او المتفرجون للحدث الملاحظ، وان ادراكهم هو ما يهم الباحث الانثروبولوجي كون الجماعة المتفرجة تنتج ادراكات مختلفة ومتنوعة للحدث الواحد، وهذا يبرز اختلاف المرجعية الثقافية والجماعية والتنشئة الاجتماعية لكل فرد على الرغم من كونهم يشكلون جماعة واحدة.

وعن طريق مزيد من التوضيح او التفسير يقترح باتيسون مثالا عن التنشئة الاجتماعية في المجتمع الاميركي والمجتمع البريطاني، ففي انجلترا وجد ان الاب البريطاني يتحدث الى ابنائه بينما هم ينصتون، وبناء عليه تشير النزعة الاظهارية الى انفراده بالحديث كله أو بمعنى اخر فرضه للسيطرة والهيمنة، فيما تشير نزعة المشاهدة الى الاصغاء، أما في اميركا فان نقيض ذلك هو الصحيح، وفي ذلك تميز كامن بين مفهومين اطلق عليهما باتيسون الكلمتين اليونانيتين روح الجماعة Ethos وروح الشخصية Eidos والتي تتألف الثقافة منهما (الن برنارد، 2017، 266-267).

وتأسيسا على هذه المنهجية المقارنة التي طورها باتيسون على وفق المعطيات التي شكلت نموذجه الارشادي لدراسة الطقس كشكل اجتماعي تتغير ممارساته ويتم تجاوز التابوات فيه على اساس بعض السياقات الثقافية التي ترتبط بزعامة معينة أو مكانة اسطورية محددة من قبل الجماعة. وبعد أن طور باتيسون ابعادا اثنولوجية للتحليل والمقارنة وتم تطبيق هذا النموذج على ثقافات أخرى، بدأ باتيسون بتحديد معالم هذه السياقات بالتعاون مع رويش، اذ ركزا على مستويات التفاعل بوصفها سياقاً، وبالمجموعة عوض الاهتمام بالمستويات البيشخصية والثقافية.

وقد تصور باتيسون النموذج السابق من المفاهيم الخاصة بروح الجماعة وروح الشخصية بمعادلة ثنائية اطلق عليها متصل التناظر والتكامل، اذ يتصور باتيسون دائما التفاعل بين الاشخاص او بين المجموعات كمقطع وكمتتالية من ردود الافعال تترتب عن ردود افعال على ردود الافعال، وهكذا يميز بين نظامين اساسيين من العلاقات، علاقات تناظرية يدخل من خلالها المشاركون في احضان دوامة مبنية على نمو حجم السلوك نفسه (مثلا العنف)، وعلى علاقات تكاملية التي يكون خلالها المشاركون كياناً ثنائي القطب (الحماية والضعف، السلطة والخضوع، حب الظهور واستراق النظر)، وهكذا يفترض باتيسون كيفيتين لتكوين الشقاق او منشأ الشقاق، وقد يؤدي هذان النظامان من العلاقات اذا تفاقما الى انفجار الثنائي في حالة الافراد، والنظام الاجتماعي في حالة المجموعات، ويقترح باتيسون

كيفيات سـبرنطيقية عدة تمكن النظام من الاحتفاظ باسـتقراره وتوازنه (برنارد، 2017، ص269).

ولغرض صـناعة آليات اشـتغال ميدانية لهذا التوجه النظري بين المتناظر والمتكامل، عمد باتيسون الى وضع تصور لمفهوم السياق وهو تصور منهج عمل ميداني واسماه "سياق الاختلاف الذي يوّلد الاختلاف"، اي أن فكرة باتيسون مفادها ان الملاحظ جزء من النظام الذي يدرسه. وغالباً ما يعطي باتيسـون لهذا الشـأن بالمثال المتعلق بالحالة التجريبية لدراسـة التعلم، حيث يصـف عالم النفس ذاته خارجاً عن مجموعة العناصر الفاعلة في التكيف، اذ يخضع المجرب الفرد لعملية التعلم والعكس صحيح بالنسبة لباتيسون: تقوّي اجوبة الفرد بعض مواقف المجرِّب وتوجه بالتالي المسـار الذي فرضـه عليه المجرِّب، ومـا يصـدق على عـالم النفس يصـدق من باب اولى على الانثروبولوجي العامل في الميدان (برنارد، 2017، ص271).

وما سـبق طرحه جرى تصـنيفه تحت مفاهيم عدة منها الانثروبولوجيا الانعكاسية والنماذج المولدة والنصوص المستخلصة والانثروبولوجيا الحوارية، وهي في الاجمال تتركز على مبدأ الأسـئلة الاسـتفهامية المبنية على العلاقة التكيفية بين الباحث والمبحوث وسـياق الحالة المدروسـة اي موضـوع الحديث. وهذا يؤكد ما قدمناه في بداية البحث من ان مسـألة التواصـل الفرعي هي من اولى المشـكلات التي واجهت الباحث الانثروبولوجي العامل في الميدان، وهي كيف تصـنع سياق الحدث وتضـع نفسـك فيه لكي ينتج معاني تساعد في فهم مجريات الحياة الاجتماعية.

وقد حاول العديد من الباحثين تجميع مفاهيم باتيسـون النظرية بخطاطة منهجية على أمل منهم باسـتخلاص نظريته ومنهجه في دراسـة الجماعات الفرعية، اي دراسـة سـياقات التواصـل الاجتماعي، بدءا – وعلى اسـاس المخطط الموضـح ادناه – تجاوز باتيسـون منوال المحفز – الاسـتجابة الذي يغذي عدة مقولات نظرية حول التواصـل، هذا التفكير يسـتغل تصـور السياق كما يلاحظ باتيسون نفسه، فهو دائما قادر على التمعن في صورته وهو يفكر، في حين ان الباحثين الذين يشـتركون معه يسـتعملون مقاطع بسـيطة مكونة عموما من افعال وردود افعال تتطور كما يبدو في فراغ، اذ يعود باتيسـون دوما في ابحاثه الى مفاهيم السـياق والبنية الكمية والدلالة (امطوش، 2013، ص55)، وقد قدمنا الى هذه المفاهيم في ثنايا هذا البحث.

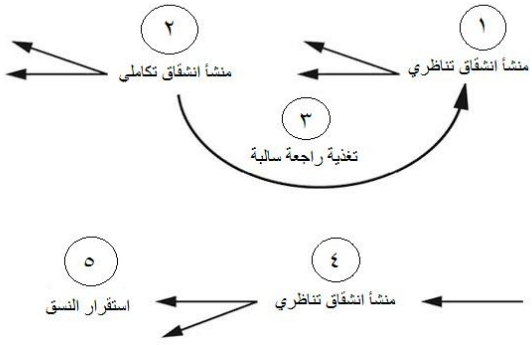

الشكل رقم (1) يبين مسارات النظرية عند باتيسون

وعلى اسـاس الترسـيمة السـابقة التي تناولت وضـع المفاهيم المنهجية التي حددت مسـارات الفهم والتحليل لدى باتيسـون، والتي ميّز من خلالها بين نوعين من العلاقات في مسـار المنظور التفاعلي هما العلاقات التكميلية والعلاقات التناظرية, ويتناسـب مع هاتين العلاقتين نمطان اثنان من التمايز التدريجي بين المجموعات, اي نمطان من التكوين الانشـقاقي: التكوين الانشـقاقي التكميلي والتكوين الانشـقاقي التناظري (لبيب، 1999، ص639). ويتكون الانموذج الانثروبولوجي عند باتيسـون من مفاهيم متعددة أبرزها:

1. **المنظور التفاعلي**: وهو المنظور الذي يحدد رؤى وتصورات الافراد تجاه الآخر من خلال الواقعة التفاعلية الاجتماعية، اي ان هذا المنظور هو منطلق ترتسـم من خلاله وجهات نظر التكامل والتناظر الذي يبرز استمرار عملية التواصل او انتهائها.
2. **التكوين التفاعلي**: وهو الذي ينتج من خلال عملية التقاطبات الثقافية بالاعتماد على مبدأ الحدود التفاعلية التي تتماس فيها القيم والعادات لتحتكم اليها افعال ومشروعية هذه الافعال بين الجماعات.
3. **العلاقات التكاملية**: وهي الحدود التي بحث فيها الأنثروبولوجيون عن المشـتركات الثقافية التي يتواصـل من خلالها الافراد على الرغم من اختلاف مرجعياتهم الجماعية.
4. **العلاقات التناظرية**: يقوم على التماثل في الصـفات المشـتركة للمرجعيات الثقافية على الرغم من وجود العديد من التباينات.

وهذا الفهم لنموذج باتيسـون يؤكد مدى اختلافه عن البنائية الوظيفية من خلال تركيزه على العلاقة بين التناظر والتكوين الانشـقاقي، اذ في التناظر يلاحظ باتيسـون تكرار النمط وسـياقه ودلالته ونموذجه في تلك العلاقات الاثنية واداء الطقس عند جماعة النافين، بينما اهتمت البنائية الوظيفية بفهم التوازن بين الانسـاق داخل البناء الاجتماعي من منظور واسـع Macro اي ان التوازن يمكن تحقيقه عن طريق التسـاند الحاصل بين الانساق، وهذا لا يؤدي الى وجود اختلاف داخل البناء، ويعكس باتيسـون ذلك المنطق بسـؤاله المنهجي كيف يؤدي الاختلاف الى اختلاف، ومن ثم الى اسـتقرار النسق؟.

وقد اتبع باتيسـون منهجية تكاملية تمت الاشـارة اليها في مبحث المرجعيات النظرية الخاصة به، اذ تحدد بالخطوات الآتية:

1. **تحديد الشـكل**: اذ ارتبط هذا الجانب بنظرية الجشـطالت ذات البعد النمطي النفسي والتي سعى باتيسون من خلالها الى تتبع الكيفية التي يتشـكل بها النمط بين ثنائية المتصـل المتكونة من التناظر والتكامل بالاستناد الى روح الجماعة (السلم القيمي).
2. **ملاحظة التكرارات**: والتي اختص وقصد بها باتيسون متابعة السلوك النمطي المتكرر داخل الجماعات المتصارعة عبر منظور خارجي Etic لهذه السـلوكيات، والذي يمهد لتسـجيل التشـابهات في التكرارات الظاهرية للسـياق الاجتماعي بين الجماعات. وهنا تكمم هذه التكرارات السـلوكية وترتسـم من خلال هوية معينة سـواء كانت هذه

الهوية صراعا طائفيا او اثنيا او نمطا حياتيا استهلاكيا، وحتى صراعا في التنشئة الاجتماعية داخل الاسرة الواحدة.

3. **المقارنة بين التكرارات**: وهي في الاجمال تتمحور حول بناء الافكار التي شكلت نمطا معينا، وتصنف داخلياً Emic كمنظور داخلي لنسق الافراد او لروح الجماعة الذي تشكل مرجعياتهم الايديولوجية. وبأتي هنا منظور المقارنة ليبين لنا شكل وهوية النمط الذي من خلاله يشتغل سياق الاختلاف ليولد التوازن والاستقرار.
4. **تحليل النمط الظاهر للتشكّل**: وهي عملية يتبغي منها الباحث الانثروبولوجي فهم عملية التمثل والامتثال لنمط محدد، ليؤدي ذلك بنا الى فهم العملية الاجتماعية بمجملها.

ويمكننا أن نجمل فهمنا لنظرية باتيسون ومنهجه بالشكل الآتي:

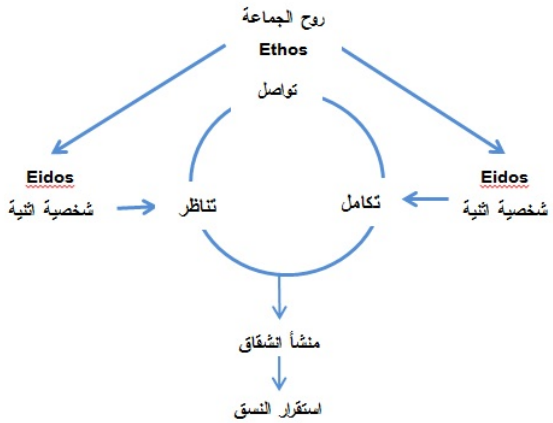

الشكل رقم (2) يبين النموذج الارشادي لعمل باتيسون النظري

وفي معرض الانتقادات التي وجهت لتوجه باتيسون النظري ومنهجه هو عدم الوضوح لآليات اشتغاله، فقد اشار الانثروبولوجي باركن واقر باعتقاده بأن طريقة باتيسون تقوم على تأسيس التناقضات ثم تجاوزها بعد ذلك، فهناك مثلا التمييز الذي اقامه بين (Ethos) روح الجماعة أي السمة العامة المشتركة بين مجموعة من الافراد الذين ينتمون الى مجتمع واحد، وبين الـ(Eidos) روح الشخصية أي الانتقال الى جوهر الاشياء وتجاوزه لها بعد ذلك (يتيم، 2004، ص170).

ونجد في هذا النص تعريفا واضحا وآلية اشتغال، أما بخصوص التعريف الذي سوف نضعه مع مجموعة من التعاريف التي تناولناها في ثنايا البحث الخاصة بروح الجماعة وروح الشخصية لنخرج منها بمفهومنا الذي يمثل وجهة نظر باتيسون، وهو ان روح الجماعة يمكن اجماله بتعريف المنظومة الثقافية المعرفية للجماعة، وروح الشخصية بالسلوك المنمط وفقا لتلك الثقافة، وقد أكمل باتيسون هذا المتصل بآلية منهجية تقوم على تأسيس التناقضات من منظور تناظري وتكاملي لفهم عملية التواصل بين جماعة اثنية وجماعة أخرى في موضوعة محددة اجتماعياً، وبأبعاد تقوم على العلاقة بين ما هو ثقافي وما هو اجتماعي. ونموذج باتيسون هنا يتحدد بالعلائقية او الوشائجية، والمقصود بهما أن التواصل والتفاعل بين البناء والفعل لا يقتصران على العلاقة الحياتية الاجتماعية، وانما يرجعها الى متبنياتها الثقافية. وهذه العلاقة تبنى على اساس النموذج الارجاعي في مديات التكوين الانشقاقي، ويعني الارجاع هنا العلاقة الدائرية التي قدم لها واعتمدها باتيسون لفهم التواصل وما ينتج عنه، وهو في اعتقادنا تفسير لمفهوم الدائرة بالارتداد من منطلق تنتهي به نقطة التفاعل.

ونرى ان مفهوم العلاقة الدائرية يتوجب ان يؤخذ بمديات فهم اخرى ترتكز على المنطلق الدائري اللولبي الذي يشكل فهماً اكثر واقعية كون التواصل لا ينتهي بنقطة محددة وانما يأخذ مديات ارتدادية تشكل العديد من المعاني والتفاعلات والموضوعات الاجتماعية، وهنا تمكننا هذه العلاقة من تقديم تعريف لمفهوم التكوين الانشقاقي بوصفه السلوكيات المحمّلة بقيمها واعرافها وعاداتها في حالة تناظر تحاول أن تخلق صورة من التكامل المعترف به من الاخر ومن الذات ليؤخذ به اجتماعياً ويتحول الى نمط، وقد اراد باتيسون أن يوضح أن هذه العملية مبنية على سياق الاختلاف بوصفه منهجاً يبرز التناقض، وهذا التناقض يحاول ان يجد حلولا لاستمرارية التواصل ومحاولة العودة الى حفظ توازن النسق الاجتماعي.

الاستنتاجات:

يشكل موضوع التواصل الفرعي لدى الانثروبولوجست جرجوري باتيسون المنطلق الأساس الذي حرص من خلاله على رسم مقاربة معرفية تبعد الدراسات الانثروبولوجية عن تقسيماتها المدرسية التي انبنت على وفق مجموعة من الايديولوجيات تشكلت من قبل العديد من العلماء، وقد اسهمت هذه المرجعيات في تحجيم بناء النظرية الانثروبولوجية وتطور منهجها، وان خلاصة هذا التوجه النظري في دراسة الصراع في الجماعات الاثنية من منظور العملية الاجتماعية التواصلية برز لنا مجموعة من الاستنتاجات التي من الممكن ان نتصورها كتسلسل لنظرية باتيسون ومنهجه، والتي يمكن اجمالها بالآتي:

1. في معرض التباين بين نموذج باتيسون النظري ومنطلقات البنائية الوظيفية، نجد أنه تناول العلاقة بين التكامل والتناظر من جهة والتكوين الانشقاقي واستقرار النسق من جهة أخرى، اذ انه ركز في هذه العملية على الكيفية التي يتشكل من خلالها النمط في داخل الصراع بصورة متوازية بين روح الشخصية وروح الجماعة، وهذا التوازي مبني على ثيمة التواصل الاشباعي والتقاطب المكاني الذي يندرج على وفق بناء الحدود ورسم المستويات الهرمية للمرجعية الجماعية، ويندرج مفهوم باتيسون الذي يوازي ويختلف عن التناول البنائي الوظيفي الاختلاف الذي يولد الاختلاف ويؤدي الى توازن النسق، في حين ان النظرية البنائية الوظيفية تركز على مسألة التساند والتكامل المؤديان الى استقرار النسق، وهو الامر الذي ينفي وجود الاختلاف في داخل النسق.
2. اعتمد التوجه النظري عند باتيسون في التواصل الفرعي على مجموعة من المفاهيم الكلاسيكية المتصلة بمرجعيات عدة منها البنائية الوظيفية والجشطالت في نموذج (الثقافة والشخصية) ونظرية الانماط في فلسفة براتراند راسل والتواصل السبرنطيقي، وقد اعتمد جميع مفاهيمها الا

انه ارتأى ان يعيد انتاجها جميعاً، وجعلها تدور في محور مفهوم الصراع، وبحسب فهمنا فإن القاعدة الاساسية لنظرية باتيسون هي (روح الجماعة Ethos)، اذ سعى باتيسون الى اعادة انتاج هذا المفهوم بصورة مخالفة لما تم تناوله من قبل الانثروبولوجست فريدريك بارث الذي ركز على مسألة السلالة والحدود، بينما انطلق باتيسون من هذا الممكن النظري لغرض بلورة المنظومة الثقافية وبناء الشكل الاجتماعي ليمهد لنا تحديد مسارات التواصل وفي شتى الاصعدة بدءا بالإشباع الغريزي وانتهاء بالسلطة السياسية وبناء المكانة، اما فيما يتعلق بالافتراضات النظرية التي تمثل الاذرع التحليلية يأتي مفهوم روح الشخصية Eidos الانقسامية، والمقصود بالانقسامية هو المبدأ التقابلي اي التقابل داخل المجموعة الواحدة لغرض بناء المقارنة وبناء النمط وتحديده، وكذلك بين مجموعتين لغرض فهم المرتكزات اللولبية في الاستمرارية التفاعلية للعملية الاجتماعية في شتى مسمياتها، ومن ثمّ يأتي فهم التكامل على اساس سيادة الصراع، ومن منظور وضع اليد للمرجعية الثقافية التي تؤدي الى استقرار النسق الوهمي، والمقصود بالمصطلح الاخير على وفق السياق الذي قدمه باتيسون (الاختلاف الذي يؤدي الى الاختلاف) ان الاستقرار هنا هو استقرار يأخذ شكلاً ظاهرياً ويحوي مضموناً ثقافياً متصارعاً.

3. اتسمت الدراسات الانثروبولوجية بتناولها للمنهج المقارن محاولة تمييز تناولها عن المفهوم او التخصص التاريخي، وقد ارتسم هذا المنهج التقليدي في الانثروبولوجيا على وفق المقارنة الافقية والعمودية التي تحوي على مساحات اشتغال تتعلق بالمكان والجزء والكل ومسألة التعميم وشمولية المجتمع المدروس، بينما يأتي تناول باتيسون للمنهج المقارن على وفق متقابلات مفاهيمية ممثلة بالعناصر والسمات والقيم والاعراف الاجتماعية لكي ترتسم من خلالها المقارنة في سياق جماعة واحدة لا يقبل فيها التعميم، ودائما ينظر الى الجزء ويُعطى مساحة أكبر من الكل، وهي مقارنة ذات طبيعة دائرية لولبية تعيد انتاج العملية الاجتماعية على وفق جمع نتاجات المقارنات على وفق اربع مراحل هي: **تحديد الشكل، ملاحظة التكرارات، المقارنة بين التكرارات، وتحليل النمط الظاهر للتشكّل**، وهو منظور يبتعد كثيرا عن الادماج الكلاسيكي بين البنائية الوظيفية والمنهج المقارن، ويقترب نوعا ما من الاثنوجرافيا الحديثة وتوجهات الانثروبولوجست جليفورد جيرتز التي سعى من خلالها الى بناء منهجية مقارنة تعتمد على التصورات المتكررة لتوليد الانماط.

4. ارتبط مفهوم النمط بالإرث الانثروبولوجي بتناولات مدرسة الثقافة والشخصية وتعلق بمسألة التنشئة الاجتماعية لبناء الشخصية والذي جرى فهمه في العديد من الدراسات من خلال المقارنة بين الانماط على مساحة مكانية متفرقة كالنمط المسالم والنمط الخاضع والنمط العدواني.. وغيره من الانماط، الا ان تناول باتيسون لمفهوم النمط اختلف عن تلك التناولات على الرغم من انه انتج معطياته من خلال دراسته للتنشئة الاجتماعية، الا انه اهتم بعملية بناء النمط النفسية والثقافية والاجتماعية، ويعدّ الباحث الانثروبولوجي الاول الذي ربط بين مسألة بناء النمط وتغيره بمسألة الصراع.

5. لقد عمد باتيسون الى تأسيس مفهوم التواصل الفرعي على خلاف المدرسة الخطية التي تنطلق في مفهومها للتواصل من خلال المعادلة الثلاثية (المرسل – الرسالة – المتلقي) التي تنتهي بانتهاء وصول الرسالة وادراكها من قبل الطرف الثالث، بينما ركز باتيسون في تناوله لمفهوم التواصل على مسألتي السياق والمؤشر والاستدامة على وفق القاعدة الادراكية انطلاقا من التوليد الادراكي للرسائل الاتصالية بمنظور ارجاعي Feedback ذي سمة توليدية تعتمد على قياس تكرارات في سلوكيات معينة تجسد انماطا محددة تتواصل داخل جماعة واحدة وبين جماعة أخرى.

6. من خلال دراسة التوجهات النظرية والمنهجية لباتيسون يمكن لنا وضع تعريف لواحد من اهم اركان نظريته وهو البنية الكمية التي تعبر عن التكرار السلوكي للادراكات المتجسدة في مجموعة معينة، اذ يقصد من اصطلاح الكم هو مسألة عدد المرات التي تكرر فيها سلوك معين في سياق اجتماعي تحوّل الى موضوع اجتماعي منمّط في جماعة معينة له قيمة ومعايير تنظمه وتضبطه.

المصادر حسب ورودها في متن البحث:

[1] ديفيد ال. سيلز، الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية، (ج1)، علماء الانثروبولوجيا، ترجمة: احمد ابو زيد وآخرون، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010، ص63.

[2] شارلوت سيمور، موسوعة علم الانسان، ترجمة: مجموعة من اساتذة علم الاجتماع، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، 2009، ص174.

[3] بيار بونت وميشيل ايزار، معجم الاثنولوجيا والانثروبولوجيا، ترجمة: مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 2006، ص273.

[4] الن برنارد، التاريخ والنظرية في الانثروبولوجيا، ترجمة: سيد فارس، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2017، ص264.

[5] 1 عبد الله عبد الرحمن تيم، دفاتر انثروبولوجية: سير وحوارات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2004، ص168-169.

[6] بيار بونت وميشيل ايزار، مصدر سابق، ص273.

[7] ايرك ميغري، سوسيولوجيا الاتصال والميديا، ترجمة: د. نصر الدين لعياضي، هيئة البحرين للثقافة والاثار، المنامة، 2018، ص187.

* **نموذج التواصل الخطي**: وهو مكوّن من ثلاثة عناصر أساسية (مهمة في التواصل) هي: المتكلم والرسالة والمستمع. فالمتكلم يرسل رسالة للمستمع، ومن الممكن أن يسمى المتكلم بـ"المرسل"، أو "المصدر"، أو "المرمز"، والترميز يعني عملية اختيار الرموز المطلوبة لحمل الرسالة، أو عملية وضع الأفكار في رموز، أما الرسالة فيقوم المتكلم بتحديد صياغتها وهي التي تحمل الأفكار إلى المستمع (المستقبل الذي يفك الشيفرة) والذي يبدأ بدوره بفك رموز الرسالة، وربط المعاني بالكلمات والإيماءات والصوت الذي يتلقاه.

[8] ايف وينكن، انثروبولوجيا التواصل: من النظرية الى ميدان البحث، ترجمة: خالد عمراني، هيئة البحرين للثقافة والاثار، المنامة، 2018، ص61-62.

[9] آرمان وميشال ماتلار، تاريخ ونظريات الاتصال، ترجمة: د. نصر الدين لعياضي ود. الصادق رابح، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005، ص80-81.

[10] ايرك ميغري، مصدر سابق، ص189.

[11] محمد عباس ابراهيم، الثقافات الفرعية: دراسة انثروبولوجية للجماعات النوبية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية – مصر، 1985، ص126.

* التطبع: بحسب عالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو فإن مفهوم التطبع يشير الى ان الفاعلين في العملية الاجتماعية يطورون عددا من الاستراتيجيات التي ترتكن إلى استعدادات (هابيتوس) يكتسبها الأفراد بطريقة لا شعورية في المحيط الاجتماعي

والثقافي تمكّنهم من التكيف وخلق نمط جديد من السلوكيات الطارئة المنسجمة مع ضرورات المحيط الاجتماعي.

[12] Lawrence S. Bale, Gregory Bateson's Theory of Practical Applications to Pedagogy, Down 'n :Mind Out Press November 1992, p16.

[13] ايكه هولتكراس، قاموس الاثنولوجيا والفولكلور، ت: د. محمد الجوهري، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1999، ص145.

[14] محمد مفتاح واحمد بو حسن، المفاهيم واشكال التواصل، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، 2001، ص47.

[15] بيار بونت وميشيل ايزار، مصدر سابق، ص47.

[16] محمد عباس ابراهيم، مصدر سابق، ص127.

[17] ايكه هولتكراس، مصدر سابق، ص357.

[18] 1 د. السيد حافظ الاسود، الانثروبولوجيا الرمزية: دراسة نقدية مقارنة للاتجاهات الحديثة في فهم الثقافة وتأويلها، منشأة المعارف، الاسكندرية، 2002، ص100-101.

[19] ايكه هولتكراس، مصدر سابق، ص172.

[20] محمد عباس ابراهيم، مصدر سابق، ص130.

[21] ينظر: الطاهر لبيب، ندوة صورة الآخر: العربي ناظراً ومنظوراً إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999، ص15-16.

[22] الن برنارد، مصدر سابق، ص267.

[23] ايكه هولتكراس، مصدر سابق، ص221.

[24] بيار بونت وميشيل ايزار، مصدر سابق، ص303.

[25] عمر مهيبل، البنيوية في الفكر الفلسفي، ديوان المطبوعات الجامعية، الطبعة الثانية، الجزائر، 1993م، ص16.

[26] طوني بينيت واخرون، مفاتيح اصطلاحية جديدة: معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، ترجمة: سعيد الغانمي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2010، ص52.

[27] فاروق محمد اسماعيل، المدخل الى الانثروبولوجيا: النظرية والمنهج، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1987، ص123.

[28] ايف وينكن، مصدر سابق، ص78-93.

[29] ينظر: عبد الله عبد الرحمن تيم، مصدر سابق، ص168 وما بعدها.

[30] كريم محمد حمزة، نظريات علم الاجتماع: المركز العلمي العراقي، دار ومكتبة البصائر، بيروت، 2015، ص75-76.

[31] ايكه هولتكراس، مصدر سابق، ص127.

[32] ايكه هولتكراس، المصدر نفسه، ص128.

[33] الن برنارد، مصدر سابق، ص182-183.

[34] د. مصطفى ناصف، نظريات التعلم، ترجمة: علي حسين حجاج، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1983، ص203-204.

[35] ايكه هولتكراس، مصدر سابق، ص100-101.

[36] د. مصطفى ناصف، مصدر سابق، ص201-202.

[37] ايه سي جرايلنج، برتراند راسل، مقدمة قصيرة جدا، تر: ايمان جمال الدين الفرماوي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2014، ص46.

[38] عبد المجيد عبد التواب شيحة، وشيخة عبد الله المسند، برتراند راسل فيلسوفاً ومصلحاً ومربياً، حولية كلية التربية – جامعة قطر، العدد 12، الدوحة، 1995، ص221.

[39] عبد المجيد عبد التواب شيحة، وشيخة عبد الله المسند، المصدر نفسه، ص222.

[40] د. محمد مريني، النص الرقمي وابدالات النص المعرفي، كتاب الرافد، مجلة الرافد، العدد89، مارس 2015، ص38-39.

[41] د فتيحة كركوش، إشكالية بناء الهوية النفسية الاجتماعية: دراسة تحليلية نقدية، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، العدد16، سبتمبر 2014، ص275.

[42] اريك ميغري، مصدر سابق، ص187.

[43] د. وحيدة سعدي، بالو التو مدرسة الاتصال، مجلة دراسات، اتحاد ادباء وكتاب الامارات – الشارقة، العدد33، 2013.

[44] الن برنارد، مصدر سابق، ص265-266.

* **انثروبولوجيا الفرجة**: ذلك الفرع من الدراسات الانثروبولوجية التي تركز على دراسة ذلك الجنس التعبيري الذي يتواصل من خلاله الناس، لأن الفرجة تعرض أمام جمهور يتكون من أغلبية لها ذاكرة مشتركة مع صانعي الفُرَج، ويذهب جليفورد جيرتز في تعريفه للفرجة الى القول بأنها: قصة يرويها الناس بأنفسهم حول أنفسهم. ينظر: مجموعة كتاب، الفرجة بين المسرح والانثروبولوجيا: مقاربات نقدية على هامش ندوة المسرح والدراما بجامعة تطوان بالمغرب، دائرة الثقافة والاعلام، حكومة الشارقة، 2002، ص31 وما بعدها.

[45] ينظر: الن برنارد، مصدر سابق، ص266-267.

[46] الن برنارد، مصدر سابق، ص69.

[47] الن برنارد، المصدر نفسه، ص71.

[48] محمد أمطوش، الغربة والتغرب: اناسة التواصل، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2013، ص55.

[49] الطاهر لبيب, مصدر سابق، ص639.

[50] الشكل من تكييف الباحث.

[51] عبد الله عبد الرحمن يتيم، مصدر سابق، ص170.

[52] آرمان وميشال ماتلار، تاريخ ونظريات الاتصال، ترجمة: د. نصر الدين لعياضي ود. الصادق رابح، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005، ص80-81.

[53] ايرك ميغري، سوسيولوجيا الاتصال والميديا، ترجمة: د. نصر الدين لعياضي، هيئة البحرين للثقافة والآثار، المنامة، 2018، ص187.

[54] ايف وينكن، انثروبولوجيا التواصل: من النظرية الى ميدان البحث، ترجمة: خالد عمراني، هيئة البحرين للثقافة والآثار، 2018، ص78-93.

[55] ايكه هولتكراس، قاموس الاثنولوجيا والفولكلور، ت: د. محمد الجوهري، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1999، ص145.

[56] ايه سي جرايلنج، برتراند راسل: مقدمة قصيرة جدا، تر: ايمان جمال الدين الفرماوي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2014، ص46.

[57] بيار بونت وميشيل ايزار، معجم الاثنولوجيا والانثروبولوجيا، ترجمة: مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 2006، ص273.

[58] ديفيد ال. سيلز، الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية، (ج1)، علماء الانثروبولوجيا، ترجمة: احمد ابو زيد وآخرون، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010، ص63.

[59] السيد حافظ الاسود، الانثروبولوجيا الرمزية: دراسة نقدية مقارنة للاتجاهات الحديثة في فهم الثقافة وتأويلها، منشأة المعارف، الاسكندرية، 2002، ص100-101.

[60] الطاهر لبيب, صورة الآخر – العربي ناظرا ومنظورا إليه, مركز دراسات الوحدة العربية, بيروت, 1999, ص639.

[61] طوني بينيت واخرون، مفاتيح اصطلاحية جديدة: معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، ترجمة: سعيد الغانمي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2010، ص52.

[62] عبد الله عبد الرحمن تيم، دفاتر انثروبولوجية: سير وحوارات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2004، ص168-169.

[63] عبد المجيد عبد التواب شيحة، وشيخة عبد الله المسند، برتراند راسل فيلسوفاً ومصلحاً ومربياً، حولية كلية التربية – جامعة قطر، العدد 12، الدوحة، 1995، ص221.

[64] عمر مهيبل، البنيوية في الفكر الفلسفي، ديوان المطبوعات الجامعية، الطبعة الثانية، الجزائر، 1993م، ص16.

[65] فاروق محمد اسماعيل، المدخل الى الانثروبولوجيا: النظرية والمنهج، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1987، ص123.

[66] فتيحة كركوش، إشكالية بناء الهوية النفسية الاجتماعية: دراسة تحليلية نقدية، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، العدد16، سبتمبر 2014، ص275.

[67] كريم محمد حمزة، نظريات علم الاجتماع: المركز العلمي العراقي، دار ومكتبة البصائر، بيروت، 2015، ص75-76.

[68] محمد أمطوش، الغربة والتغرب: اناسة التواصل، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2013، ص55.

[69] محمد عباس ابراهيم، الثقافات الفرعية: دراسة انثروبولوجية للجماعات النوبية، دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية – مصر، 1985، ص126.

[70] محمد مريني، النص الرقمي وابدالات النص المعرفي، كتاب الرافد، مجلة الرافد، العدد89، مارس 2015، ص38-39.

[71] محمد مفتاح واحمد بو حسن، المفاهيم واشكال التواصل، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، 2001، ص47.

[72] مجموعة كتاب، الفرجة بين المسرح والانثروبولوجيا: مقاربات نقدية على هامش ندوة المسرح والدراما بجامعة تطوان بالمغرب، دائرة الثقافة والاعلام، حكومة الشارقة، 2002.

[73] مصطفى ناصف، نظريات التعلم، ترجمة: علي حسين حجاج، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1983، ص203-204.

[74] الن برنارد، التاريخ والنظرية في الانثروبولوجيا، ترجمة: سيد فارس، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2017، ص267.

[75] وحيدة سعدي، بالو التو مدرسة الاتصال، مجلة دراسات، اتحاد ادباء وكتاب الامارات – الشارقة، العدد33، 2013.

[76] Lawrence S. Bale, Gregory Bateson's Theory of Practical Applications to Pedagogy, Down 'n :Mind Out Press November 1992.